ترجمات | قسم الدراسات الدينية | 25 ديسمبر 2020

أصول الحركة الجهادية وتطورها
من معارضة الشيوعية إلى الإرهاب

جيل كيبيل
ترجمة: مصطفى العارف

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2020
All rights reserved © 2020

أصول الحركة الجهادية وتطورها من معارضة الشيوعية إلى الإرهاب[1]

جيل كيبيل

ترجمة: **مصطفى العارف**[2]

1 هذا المقال ترجمة عربيّة للمقال التالي:

Gilles Kepel, The origines and development of the jihadist movement: From anti-communism to terrorism, in Frederic volpi (edited by), Political Islam (A critical reader), Routledge, 2011, p255-270

2 باحث مغربي، أستاذ التعليم العالي، متخصص في الفلسفة المعاصرة.

كانت جريمة الحادي عشر من سبتمبر بمثابة ذروة أنشطة الحركة الإسلامية الراديكالية منذ أواسط الثمانينيات، حينما تحالف المحاربون الجهاديون من أجل مواجهة الجيش الأحمر في أفغانستان.

وتحت قيادة الولايات المتحدة الأمريكية والملكيّات الغنية بالنفط في شبه الجزيرة العربية ودعمها، فإن أغلب النشطاء المتحمّسين جاؤوا من مصر والجزائر والسعودية وباكستان وجنوب شرق آسيا، بل إنهم جاؤوا حتى من الضواحي الأوروبية التي قدمت عناصر للقتال في الفرقة الإسلامية الدولية.

وركز هؤلاء نشاطهم الجهادي على «الإلحاد الشيوعي» للاتحاد السوفياتي، محاولين إقناع الناس بتجاهل صفارات الإنذار التي وجهها الخميني لتحرض العالم الإسلامي على الانتفاضة ضد الشيطان الأمريكي الأعظم. والأمر نفسه الذي يخص الولايات المتحدة الأمريكية، يخص أيضا الدولة الإسلامية المتحالفة معها؛ ذلك أن الحركة الجهادية في أفغانستان حاصرت الاتحاد السوفياتي، وورطته في حرب الفيتنام القاتلة، وكان الهدف في الوقت نفسه منع إيران الثورية من قيادة حركة إسلامية كانت سريعة الانتشار في جميع أنحاء العالم. لقد تم تحقيق هذين الهدفين؛ ففي الخامس عشر من فبراير 1989 انسحب الجيش الأحمر من أفغانستان بشكل مخز، وكان ذلك تمهيدا للانهيار الأخير للنظام الشيوعي، حيث شكل سقوط جدار برلين في خريف السنة نفسها دقا لناقوس الخطر.

لم تنجح إيران في تصدير ثورتها عبر العالم الإسلامي باستثناء جنوب لبنان الشيعي. وأُجبر الخميني في صيف 1988 على توقيع معاهدة هدنة مع صدام حسين، ثم مع عملاء الغرب والدول الغنية بالنفط خلال نهاية الثماني سنوات من حرب الخنادق القاتلة. وبهذا التوقيع، قبر الخميني حلمه بإقامة جمهورية إسلامية شقيقة في بغداد. بدا الجهاد الأفغاني في نظر واشنطن بمثابة انتصار مزدوج ونتيجة ممتازة، حيث لم يكن الجيش الأمريكي متورّطا، ولم يقتل أي جندي في المعارك، ولم يكن هناك أسرى حرب، ولم تضغط أمهات الجنود ولا معارضو الخدمة العسكرية على السلطة التنفيذية. كان هذا نقيض ما حصل في فيتنام؛ كان المقاتلون في أفغانستان أجانب ملتحين يوصفون بمقاتلي الحرية في الكفاح ضد «إمبراطورية الشر». لم يشكل هؤلاء في الواقع فصيلا سياسيا في السياسة الداخلية الأمريكية، بل فتحت أمريكا مكاتب لتجنيد مقاتلين للذهاب إلى أفغانستان متجاهلة بذلك النتائج التي ستترتب عن إجراءاتها. جمع هؤلاء التبرعات وجندوا طلابا مسلمين في الحرم الجامعي، ونظموا جولات للدعاة من الشرق الأوسط. كلفت هذه المعركة الأخيرة ضد الاتحاد السوفياتي عن طريق الجهاد غير المباشر دافعي الضرائب الأمريكيين لا شيء تقريبا. عموما يمكن تقدير التكاليف بـ 1,2 مليون دولار في السنة، وتحملت نصفها دول الخليج: هي صورة سخيفة عندما يكون الرهان ذا قيمة.

وعلى الرغم من ذلك، فإن انتصار أمريكا حمل معه غموضا مخيفا: فقد اعتقد قادة أمريكا أنه باستطاعتهم مراوغة الجهاديين والسيطرة على ممثلي الجهاد، ثم التخلص منهم فيما بعد بمجرد زوال الخطر السوفياتي. وهكذا تحول مقاتلو الحرية سنة 1989 -والذين تم الاحتفال بهم بالأمس القريب، كما قرأنا في الصحف الأمريكية- إلى مجرد مهربين للمخدرات، ومنه تم توقيف الدعم لهم. قد نعتقد أنهم اختفوا نتيجة نقص الدعم المالي من واشنطن؛ لكن صندوق باندورا كان قد تم فتحه من قبل. لقد كانت صدمة الحادي عشر من سبتمبر التي اجتازتها أمريكا جزئيا نتيجة لسياساتها في الثمانينيات. لقد دفعت ثمن عدم مقتل أي أمريكي في الجهاد ضد الاتحاد السوفياتي بمقتل الآلاف في مركز التجارة العالمية ووزارة الدفاع بعد عشر سنوات تقريبا.

إن مسلسل الأحداث الذي قاد حركات الإسلام الجهادية من مواجهة الاتحاد السوفياتي إلى مواجهة أمريكا جد معقد؛ إذ تتداخل العقيدة والجغرافيا السياسية في شبكة من المؤامرات بواسطة أجهزة الاستخبارات من كل المناطق. وبهذا الصدد، لا نتوفر إلا على معلومات قليلة تطرح أسئلة أكثر مما تقدّم من الأجوبة. ورغم ذلك، يمكن إعادة بناء سلسلة الأحداث التي اختُتمت في حدث الحادي عشر من سبتمبر غير المسبوق، بحذر.

الإرث الغامض للجهاد في مواجهة الجيش الأحمر في أفغانستان

يعتبر الجهاد مفهوما مركزيا في العقيدة الإسلامية، بيْد أن تطبيقه عرف تقلبات في مسار التاريخ؛ يعني الجهاد حرفيا «مجهودا»، وبالنسبة إلى المؤمن الفردي هو مجهود روحي يجعله أكثر تقوى وأفضلها؛ وبالنسبة إلى الصوفية، فإنه حالة انتشاء تقود نحو الاندماج بالله. لهذا التأويل دلالاته في أساس الثقافة الدينية -يستعمل الجهاد بصيغة المفرد- ولهذا رفض أغلب علماء الإسلام اعتبار الجهاد مرادفا للإرهاب. لكن للكلمة أيضا، بعد سوسيو سياسي في علاقة بنبرة حربية، تبدو جلية في التعريفات القانونية الدقيقة.

هناك تمييز على مستوى التراث بين المفهوم الجهادي -منح دعم ديني للتوسع العسكري للعالم الإسلامي من أجل غزو واستغلال أرض الكفار- ثم الجهاد من أجل الدفاع المعلن من طرف الفقهاء والعلماء: إنه تعبئة عامة من أجل «وطن» تحت التهديد، كلما تعرضت البلاد إلى تهديد من طرف الكفار.

يدخل التحديد الأول في نطاق السلطة السياسية ولا علاقة له بالمسلمين. يشارك في ذلك الجنود المحملون بحماس التقوى أو المنجذبون بمسألة سلب الغنائم. أما التحديد الثاني، فهو لا يتسامح مع امتناع أيّ مؤمن عن الجهاد، وهو يقلب تراتبية القيم الاجتماعية والواجبات. وعندما يُعلن الجهاد الدفاعي تكون له سلطة عليا؛ بإمكانه التخلي عن صوم رمضان أو طاعة أمير من المعارضة، فالأمر يتعلق بحياة الجماعة المؤمنة. كل شخص يجب عليه تحت تهديد خطيئة مميتة المشاركة بما يتناسب مع ممتلكاته، إما بواسطة السلاح أو

بالأموال أو على الأقل بأعمال الخير أو الصلاة. يصير القتال أعلى القيم، وينظم تعبئة جميع الطاقات، فكل الوسائل تبرر الغايات وحماية الجماعة؛ بيْد أن هذا السلاح الأرقى للإسلام يمكنه أن يتحول إلى سلاح ذي حدين، وقد حرص العلماء دوما على تقييد الجهاد في المكان والزمان، وإذا ما انفلت عن سيطرتهم، فإنه يعرض النظام القائم للخطر. يمكنه أيضا أن يطلق العنان للعنف الذي قد يؤدي بالجماعة المؤمنة إلى الفتنة والفوضى، مما يحولها إلى هدف لأولئك الأعداء الذين يجب توجيه العنف إليهم.

يعتبر الجهاد الدفاعي فرض عين على كل فرد، وقد تم الإعلان عنه مباشرة بعد اجتياح الجيش الأحمر لأفغانستان في ديسمبر 1979. ليس في الإسلام سلطة عليا، يمكن مقارنتها بالبابا في الكاثوليكية. يتعلق الأمر بحظوة أو كاريزما لدكتور في الشريعة وللمعرفة المنسوبة إليه، ثم مدى تأثير الشبكة التي ينشر من خلالها خطبه الموزعة بواسطة أشرطة مصورة أو صوتية، والتي تتضمن وجهة نظره القانونية أو الفتوى. كان العلماء الأوائل ينتمون إلى المذهب السلفي أو الوهابي، باعتباره يمثل التيار المتشدد والمحافظ في الإسلام، والذي تمثله المؤسسات الدينية في المملكة العربية السعودية. كانوا أيضا على تواصل مع جماعة الإخوان المسلمين، وهي تنظيم دولي تم تأسيسه في مصر نهاية 1920، وانتشرت بقوة في الطبقة المتوسطة العربيّة حسنة التقوى. كما أنها كانت ممثلة في الجماعة الإسلامية المقابل للإخوان المسلمين في باكستان وشبه القارة الهندية. كل هذه الجماعات كانت تشتغل من أجل إرساء الدولة الإسلامية المرتكزة على الشريعة، باعتبارها القانون المستلهَم من النصوص المقدسة، وتعاونت من أجل دحر الشيوعية، الأمر الذي سيجلب لهم تعاطف واشنطن. عندما أُعلن الجهاد ضد الكفار السوفيات الذين كانوا يغزون الأراضي الإسلامية في أفغانستان، كانوا يقدمون بديلا لمسألة معاداة أمريكا التي روجتها الثورة الإيرانية. لقد كانوا يشكلون صمام أمان بالنسبة إلى الحركات الأكثر تطرفا في العالم الإسلامي، والتي بدأت تهدد استقرار عدد من الأنظمة.

في نوفمبر 1979، تمت مهاجمة المسجد الكبير في مكة والاستيلاء عليه من طرف مسلحين أدانوا الحكم السعودي التابع لأمريكا. وفي أكتوبر 1981، تم اغتيال الرئيس المصري أنور السادات من طرف جماعة إسلامية تسمى الجهاد، ثم في الجزائر وابتداء من 1982، بدأت حركة إسلامية سرية متأثرة بمصطفى بويعلي في دعم الكفاح المسلح ضد جبهة التحرير الوطنية.

وفر الجهاد في أفغانستان لكل هذه المنظمات مسرحا لحمايتهم من هذه الأنظمة المعنية. أما في مصر، فإن معظم من حُكم عليهم بعقوبات مخففة بعد اغتيال السادات، من بينهم محمد الظواهري الذراع الأيمن لأسامة بن لادن، أُطلق سراحهم سنة 1984، وتم إرسالهم إلى مكة لأداء العمرة قبل أن يرحّلوا إلى بيشاور في باكستان. كانت الحكومة المصرية راضية على هذه التسوية. تركت هذه العناصر التخريبية وادي النيل

من أجل القتال مع حليف أمريكا التي كانت تزود مصر بمساعدات مالية وعسكرية مهمة، وإذا ماتوا في ساحات المعارك، فإنه سيكون هناك عدد أقل بكثير من الإسلاميين المتطرفين.

كان الأمر شبيها في الجزائر بالنسبة إلى المسلحين الموالين لبويعلي، والذين تم تهميشهم من قبل أفغانستان بعد توقيفهم من طرف أجهزة الأمن، أو أولئك الذين اختاروا المنفى هربا من القمع. بينت الحسابات السياسية قريبة المدى لهذه الأنظمة أنها كانت مخطئة؛ ذلك أن أغلب الجهاديين لم يموتوا في المعارك. فانطلاقا من احتكاكهم بالمدربين الباكستانيين وتحت إشراف المخابرات الأمريكية اشتد عظمهم واكتسبوا أحدث التقنيات الحربية، وكيفية التعامل مع المتفجرات وحرب العصابات ومراقبة الناس والتسلل، وكل الأنشطة التخريبية بشكل عام. كل هذا كان مخططا له من أجل النضال ضد السوفيات. وكان الهدف فيما بعد، هو توسيع نطاق عملياتهم الإرهابية ضد أولئك الذين قدموا لهم الدعم فيما سبق. تتراوح تقديرات عدد المجاهدين الأجانب الذين مروا عبر معسكرات التدريب الواقعة في المناطق القبلية الباكستانية بين بيشاور والحدود الأفغانية، حيث تقع جبال تورابورا، وفي مناطق معينة من أفغانستان خارج نطاق السيطرة السوفياتية، بين عدة آلاف والعشرات من آلاف الأفراد. تظل هذه الأرقام غير دقيقة بتاتا، والتقديرات تبقى متضاربة لأسباب عدة، ولم تستطع أية إدارة موثوق بها، رصد بيانات الوافدين والمغادرين. لقد تغير تعريف مراكز التدريب وغايتها: فقد بقي معظمها نشيطا بين بداية أبريل 1992 (تاريخ الاستيلاء على كابول من طرف تحالف مختلط من المجاهدين)، والهجوم الأمريكي على طالبان في خريف 2001. من الصعب جدا معرفة إلى أي مدى نفذت أجهزة وكالة الاستخبارات العسكرية الباكستانية، حتى بعد 1992، أنشطة للاتصال والتدريب. ونفس الصعوبة تكمن في معرفة ما جرى بالنسبة إلى نظيرتها الأمريكية.

لكي نعوض هذه الشكوك، تسمح لنا الشهادات المختلفة التي قدمتها مذكرات المجاهدين السابقين والتصريحات والاعترافات التي قُدمت من خلال الاستجواب، أو في المحاكمات، باستخلاص أن الوقت الذي كانوا يقضونه في معسكرات التدريب كان من نوعين. وعلى ما يبدو، فإن معظمهم لم يقضوا وقتا طويلا في هذه المعسكرات؛ لقد كانوا يتشكلون من مجموعة كبيرة من المتعاطفين الذين كانوا هدفا لطلقات نارية، وكانوا يأخذون صورا يلبسون فيها أغطية رأس أفغانية وألبسة قتالية، ويحملون بنادق كلاشنكوف على أكتافهم. لقد كانوا منظمين بحماسة كبيرة ومستعدين لتوفير الاحتياطات والدعم، من أماكن للاختباء والدعم المالي، دونما حاجة ليتشكلوا ضمن وحدة عمليات مباشرة. كان من بينهم أبناء عائلات سعودية يحضرون بسيارات جيب (Jeep) مكيفة ولوازم صيد يتركونها عند المغادرة. كان هناك أيضا إسلاميون قادمون من الضواحي والمدن الداخلية للدول الغربية دونما أية موارد مالية، حيث تم الاعتناء بهم من طرف منظمات متخصصة في الدعوة والعمل الإنساني. وعلى العكس من ذلك، فإن أولئك الذين ظلوا لفترة طويلة يشكلون نواة مسلحين حقيقيين أقل عددا من مجموعة (Birds of passage). كان أسامة بن لادن أول من حاول

جمع البيانات حفاظا على الاتصال مع الباقين في المعسكرات، ومحاولة تجنيدهم في شبكات. وجب الإشارة ههنا إلى أن مصطلح القاعدة نشأ داخل الاستخبارات الأمريكية وتلقفته الصحافة الدولية. (لا توجد مصادر تؤكد أن المحاربين أنفسهم كانوا يسمون منظمتهم بهذا الاسم). يعني الاسم في اللغة العربية «قاعدة»: هو في هذه الحالة قاعدة بيانات، إنه يحدد قاعدة بيانات أولئك الذين خبروا جيدا المعسكرات، ثم تفرقوا فيما بعد في أنحاء العالم مشكلين مجموعات تم التواصل معها بالبريد الإلكتروني والأنترنيت والمواقع الإلكترونية. من المحتمل أن يكون الاسم مجرد استعارة، لكنه يبين القدرة الفريدة لابن لادن في تحويل تجمع عشوائي ومؤقت لمقاتلين داخل حيز مكاني -المعسكرات- إلى شبكة عالمية ذات إمكانيات دائمة؛ فهو يشير بشكل لافت إلى وجود نظام إدارة متطور يطبق تقنيات الاتصال على النشاط السياسي والتخريبي. منذ بداية الثمانينيات، كان المجاهدون المقاتلون المتكتلون في باكستان وأفغانستان يتوقعون توسيع أنشطتهم عالميا في السنوات العشر القادمة.

لا نتوفر في الواقع على كتابات وتصريحات لابن لادن تحيل إلى هذه المرحلة، في حين هناك نصوص لمستشاره عبد الله عزام -جهادي فلسطيني من جنين- تؤكد أن الجهاد الأفغاني كان فقط بداية مسار طويل. بعد الانتصار، فإن كل أراضي الإسلام التي احتُلت من طرف الكفار -من ميندانا إلى الفلبين والجمهوريات السوفياتية الأسيوية الوسطى ثم الأندلس- سيتم استعادتها. لكن وراء هذه الاستعارة لعبد الله عزام، فإن الهدف الرئيس للجهاد بعد سقوط كابول، سيكون هو الحصول على القدس، ثم إرساء الدور الإسلامي في فلسطين المحررة من الاحتلال الصهيوني، بيْد أن هذا المشروع تم إحباطه بعد عملية اغتيال عزام يوم الجمعة 24 من نونبر 1989، وهو في طريقه إلى المسجد في بيشاور. حدث هذا خلال مرحلة من العنف الدموي التي تلت انسحاب الاتحاد السوفياتي من كابول، عندما دخلت مجموعات متنافسة من المجاهدين الأفغان في جدال حول استراتيجية الحصول على العاصمة قبل أن تضعف قواتها في حروب دامية عرقية- دينية. كرر هذا الاغتيال الغامض في أكتوبر 1988 عبر هجوم على ضياء الحق الدكتاتور الباكستاني، ولم يطالب أحد بمسؤولية هذا الاغتيال. كان ضياء الحق قد هاجر من بلاده من أجل تقديم المساعدات الخارجية للجهاد.

في كل حالة نواجه عددا كبيرا من الإجراءات منذ بداية الجهاد حتى خريف 2001، لا يمكن في الواقع لأي جهاز استخباراتي أو باحثين جامعيين أن ينسبوا هذه الإجراءات إلى أية مجموعة بعينها. كل هذا يترك مجالا كبيرا من الشكوك، عندما نحاول فهم الأمر. ورغم ذلك، فإن اغتيال عزام أدى إلى تأجيل القضية الفلسطينية من أجندة الجهاد وعدم العودة إلى ما بعد الانتفاضة الثانية، ثمّ أخذت دول أخرى مكانها في التسعينيات، في شبه الجزيرة العربية والبوسنة ومصر والجزائر وطاجيكستان والشيشان، ثم داغستان وكشمير والفلبين وقضية الألبان، ثم تلك الأنشطة الشاملة الأولى ضد الولايات المتحدة الأمريكية.

يتميز الجهاد في أفغانستان بخاصية أخرى أساسية من شأنها أن تكون لها نتائج كثيرة، حيث لم يحظ بدراسة وافية: تغيير سيكولوجي من داخل الحركة الإسلامية بسبب تأثير التلقين الخاص الذي خضعت له داخل المعسكرات. يجب ربما البحث من داخل هذه المعسكرات عن أصل غسل أدمغة نشطاء من بين آخرين ارتكبوا المهام الانتحارية في الحادي عشر من سبتمبر 2011. تشير الشهادات التي تمت استعادتها، المكتوبة والمسجلة، إلى تعصب ديني متطرف يحمل سمة القرون الوسطى الظلامية، إضافة إلى مستوى عالٍ جدا من آلية المغالطة. وفي غياب وثائق أو أدلة دقيقة حول هذا الجانب المتعلق بحياة معسكرات التدريب، يبقى لنا الاعتماد على وفرة الكتابات التي أنتجها فيما بعد اللاجئون في لندنستان (Londonistan) (ظهر المصطلح في وسائل الإعلام ويشير إلى المجاهدين المتعاطفين مع القاعدة والمقيمين في منطقة بالعاصمة لندن). كانت هذه تسمية عاصمة بريطانيا، عندما كانت ملجأ طوال التسعينيات لعدد من الأيديولوجيين الذين كانوا في أفغانستان وباكستان خلال الثمانينيات. ظهرت هذه النصوص التي نُسبت في أغلبها إلى كتّاب مثل أبي قتادة الفلسطيني وأبي مصعب السوري أو المصري أبي حمزة في مجلة الأنصار في لندن خلال مرحلة الجهاد في الجزائر بين 1993 و1997، وكانت إلى حد الآن دليلا على تطور إيديولوجية إسلامية في المعسكرات. كُتب هذا الأدب بأسلوب صعب للغاية، مليء بالتلميحات والمفردات التقنية المتخصصة المستمدة من علماء القرون الوسطى. وعلى العكس من إيديولوجية بعض الإسلاميين، مثل سيد قطب المصري والباكستاني المودودي، بل وحتى آية الله الخميني الذي ألّف كتبا من أجل قراءتها ومناقشتها وفهمها ببساطة من طرف الجيل الجديد المتعلم، جيل العشرينيات خلال سنوات 1970، تتميز هذه الكراسات بلهجة سلطوية لا يمكن المساس بها، ومعززة بطابع غير مفهوم بالنسبة إلى القراء غير المتخصصين. تم استثمار هذه السلطة بمعية قوة سحرية ودينية تعززت بواسطة تراكم عدد كبير من الأوامر القرآنية، ثم أساسا من الحديث النبوي الأقوال والأفعال المثالية للنبي محمد.

تحاول النزعة السلفية والوهابية في الوقت الحاضر إضفاء شرعية دينية على الأنظمة الاجتماعية المحافظة، مثلما هو الأمر بالنسبة إلى عدد من الملكيّات في الجزيرة العربية. لم تكن هناك أية فرصة للنهوض بالجهاد هناك، فبالنسبة إلى الدول التي اختارت هذا الاتجاه، باعتبارها حليفة للولايات المتحدة الأمريكية، فقد شاركت في نظام عالمي استفادت منه. وتم حاليا إحياء هذه المدرسة من طرف قادة المعسكرات الأفغانية الباكستانية، حيث شددوا على نظرية الجهاد. لقد ألّفوا بين نظريتهم في الجهاد والحركة الإسلامية الأحدث ممن كانوا من قرّاء سيد قطب، أولئك المصريون الذين أعدموا سنة 1966 من طرف نظام جمال عبد الناصر، ومع المودودي مؤسس الجماعة الإسلامية (توفي سنة 1979)، ومع من خرجوا من جماعة الإخوان المسلمين. يعتبر الجهاد بالنسبة إلى المودودي أولوية، لكن تم دمجه داخل برنامج كامل للأنشطة الاجتماعية والإنسانية، وأنشطة الطلبة والمشاركة في الانتخابات... والتي تتوفر على قاعدة واسعة وأكثر تنوعا. أدى هذا التقارب بين الاتجاهين إلى إنتاج إيديولوجية جديدة -السلفية الجهادية- مع التأكيد على أهمية

الجهاد في هذا السياق الفكري، وداخل بيئة التدريب العسكري في المعسكرات. لقد تم فهم الجهاد بمعناه العنيف والمتعصب. كان يجب أن يكون هناك كفاح مسلح قاس ضد الكفار الذين يمكن توسيع نطاقهم من دون حدود، وأضحى الجهاد مركزا للفتنة ودواء لكل أمراض العالم، بل وحتى جوهر الإسلام.

في جميع الاحتمالات، كان هناك تصور للعالم من شأنه أن يوفر إطار عمل للمقاتلين الدوليين الذين مروا بتجربة المعسكرات خلال عام 1989، حينما منحهم الاتحاد السوفياتي هدنة لم تكن متوقعة: عانت واحدة من القوى العظمى في يالطا من هزيمة عسكرية قاتلة بفضل حفنة من المجاهدين وحزب من الثوار المنشق في الجبال الذي كان يواجه حربا جوية. من المؤكد أن صواريخ ستينغر (Stinger) أرض-جو المقدمة من طرف الولايات المتحدة الأمريكية اعتمدت على أكثر من الإيمان الديني في تحديد النتيجة العسكرية. لكن لم يكن هناك بديل من حمل الرجال لهذه الصواريخ؛ كان هناك المجاهدون الأفغان -وبالكاد كان مجاهدون أجانب- ولكن عموما كانوا يشتركون في نفس المفهوم الغامض للجهاد، باعتبارهم محاربين دوليين مشهورين انبثقوا من معسكرات التدريب. كان هؤلاء الناس مشروطين بقراءة حرفية للنصوص المقدسة، مع تصورهم أن النبي وصحابته ثم خلفاءه المباشرين هم القدوة الوحيدة، وأن عصرهم هو العصر العادل في الإسلام والنموذج لكل العصور. لقد تصوروا أنفسهم أنهم استطاعوا تفكيك الإمبراطورية السوفياتية، وعلى نفس منوال المسلمين الأوائل الذين دمروا الإمبراطورية الساسانية، فاتحين أرض المشرق لأبطال الله. وبمجرد تحقيق هذا الهدف، شن الخليفة الأول (أبو بكر) حربا على الإمبراطورية الكافرة الأخرى التي تسيطر على العالم البيزنطي اليوم، فإن السلفيين الجهاديّين اليوم على أتم الاستعداد لمحاربة بيزنطة العصر: الولايات المتحدة الأمريكية.

- إعادة توجيه الجهاد نحو الغرب

بلغت إعادة توجيه الجهاد نحو الغرب ذروتها في هجمات 11 سبتمبر 2001، حيث تميز بمرحلتين متميزتين للغاية. وحتى منتصف التسعينيات، ظهرت بشكل جلي في نشاط العصابات في مصر والجزائر والبوسنة، فقد كان ذلك نكسة عسكرية، وكانت أول عملية إرهابية على أراضي أمريكا هي الهجوم على مركز التجارة العالمية في فبراير 1993، وشكل هذا الحدث نكسة فتحت مستقبلا غير متوقع. وفي النصف الثاني من العقد نفسه كان لسلسلة من الهجمات الإرهابية تأثير واسع وأكثر فتكا، حيث عوضت فشل حرب العصابات: هجمات ضد ثكنات بحرية في الظهران على الأراضي السعودية في يونيو 1996، وضد السفارات الأمريكية في تنزانيا وكينيا في السابع من أوت 1998، ثم هجمات ضد المدمرة USS كول قبالة سواحل عدن في أكتوبر 2000، وأخيرا هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001. لقد كانوا شاهدين على تكتيك آخر. وحيث إن المقاتلين كانوا غير قادرين على تجنيد الجماهير في جهاد قاده أفراد عصابات

كانوا يريدون أن ينظر إليهم، باعتبارهم أبطالا يقاتلون الأنظمة الكافرة، فقد اختاروا الضرب من داخل القوة الأمريكية، كاشفين بذلك عن نقاط ضعف هذه القوات. لقد كانوا يأملون في تحفيز الجماهير الإسلامية من خلال التغطية الإعلامية الهائلة لأنشطتهم المتزامنة، والتي من شأنها أن تشكل إلهاما لهذه الجماهير للانضمام إلى الجهاد. لكن من وجهة نظرهم، فشلت العمليات الإرهابية في تحقيق أهدافهم المتمثلة في الانتفاضة المتوقعة، رغم النتائج القاتلة لعملياتهم والأثر الرمزي المدمر الذي أحدثته. في الواقع تم القضاء على حركة طالبان بواسطة الجيش الأمريكي، بل حتى الجهاد في فلسطين ارتد على نشطائه، رغم مقتل العديد من المدنيين الإسرائيليين ضحايا العمليات الانتحارية.

- امتداد العصابات الجهادية وإخفاقها 1992 - 1997

كان لاجتياح صدام حسين للكويت في الثاني من غشت 1990 نتائج تمثلت في ظهور تصدع لا يقبل الإصلاح في قلب الحركة الإسلامية، ممّا أدّى إلى خلق معارضة للتيار البورجوازي المعتدل المرتبط بالمصالح السعودية. انفتحت الحركات بذلك على مجموعات أكثر تطرفا من بينهم مثقفون ثوريون ومسلحون منبثقون من المدن الحديثة الفقيرة. في السابع من غشت 1990 استدعى الملك فهد خادم الحرمين الشريفين (مكة والمدينة) الجيش الأمريكي وحلفاءه. وبذلك ارتكب الملك فهد خطيئة لا تُغتفر في نظر المتطرفين: فالجنود الكفار ورجال الدين المسيحيين واليهود سيلطخون التربة المقدسة لشبه الجزيرة العربية، ويهددون الأماكن المقدسة. نجد علامة واضحة في الواقع على هذه الفجوة بين تيارين للحركة الإسلامية خلال توقيت الهجوم على السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا: السابع من غشت 1998 ذكرى نداء الملك فهد للمساعدة الأمريكية. كان وصول الجيش الأمريكي الكافر في نظر المتطرفين وحلفائهم إلى الأراضي السعودية، ثم هجومهم على إيران من نفس طبيعة اجتياح الاتحاد السوفياتي لأفغانستان. في كلتا الحالتين، تم غزو دار الإسلام ومن المشروع النداء للجهاد للدفاع ضد الغزاة. ورغم ذلك، لم ينجحوا في الحصول على إجماع العلماء بشكل كبير، كما كان الأمر في أفغانستان، لإعلان الجهاد، لكن الأمر لم يمنع المسلحين من المشاركة. خلقت هذه الوضعية الهشة إصرارا كبيرا واحترافية من طرف المقاتلين الذين تم تلقينهم وتحصينهم في معسكرات التدريب الأفغانية-الباكستانية.

بعد وصول القوات الأجنبية إلى الأراضي السعودية في صيف 1990، برزت حركة ضد آل سعود تسمى السلفية الجهادية وأطلقت على نفسها الصحوة. جذبت هذه الحركة بعض الدعاة والشباب بشكل عام، وبعض المثقفين المحليين الذين كانوا على علاقة بالمهاجرين السوريين والفلسطينيين الذين وجدوا لهم مكانا في الكويت، والمنتمين إلى جماعة الإخوان المسلمين أشهرهم الشيخ عودة والشيخ حوالي، وأولئك الذين

سُجنوا خلال عامي 1994 و1999، ثم المعارض الإعلامي المقيم في المنفى بلندن محمد المسري، والذي كان تأثيره قصير المدى.

وشغل المعارضون النظام السعوديّ؛ لأنّهم تحدوا شرعيته. وتطلب التحالف الضيق بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة الأمريكية مزيدا من التنازلات من أجل صلاحيات شرعية وقانونية للعلماء، حتى يمكن إضفاء الشرعية على هذا التحالف. وكان القبض على قطاع واسع من النظام التعليمي من قبل السلطات الدينية الأكثر محافظة، خصوصا مع تجربة الانفجار التي عدّت واحدة من أكبرها في العالم، أحد أهمّ الامتيازات التي فاز بها العلماء. كان لهؤلاء العلماء سيطرة كبيرة على مجال الدراسات -حتى تلك غير المتعلقة بالشؤون الدينية- وقاموا باستنبات رؤيتهم للعالم في عقول جيل من الشباب، بدأ يشعر في بداية التسعينيات بانخفاض سعر النفط، وتفاقم الأمر بازدياد عدد المستفيدين من عائدات النفط. وبحلول نهاية التسعينيات نتج عن هذا الجيل مئة ألف خريج في السنة، حيث قُدر ثلثهم فقط ممن تحصّل على وظيفة. تشكلت داخل المجتمع السعودي نواة من الشباب الساخط المنشغلين بمستقبلهم، بيْد أنهم كانوا ضعيفي التكوين. وغذّى عدد كبير منهم استياء عامّا ضد العائلة الملكية الكبيرة التي كانت تحوز امتيازات للحصول على عائدات النفط.

لكن المعارضة الدينية متمثلة في الشيخ عودة والشيخ الحوالي، لم تتمكن من الاستفادة من هذا السخط؛ لأن القمع الوحشي نجح في قطع الصلة بين الدعاة الأكثر نشاطا وكتلة الشباب. علاوة على ذلك، كان على النظام التسامح مع الوعظ السلفي، حيث كان من الصعب جدا التمييز بين العلماء الكبار وأتباعهم البعيدين الذين تأثروا بالجهاد. وتكفل الشيخ بن باز مفتي المملكة (توفي سنة 1997) والشيخ بن عثيمين، وهو رجل دين مشهور (توفي سنة 2001) بالحفاظ على التوازن بين المحافظين والمتطرفين.

انتشرت المعارضة طوال التسعينيات، رغم أنها لم تكن علنية بسبب سجن أشهر مسلحيها بعد سنة 1994. توسعت حملة التعاطف مع أسامة بن لادن؛ لأنه جُرّد من جنسيته السعودية سنة 1994، وتبنى حديثا نسبه إلى الرسول، وهو على فراش الموت شعارا له «طرد اليهود والمسيحيين من شبه الجزيرة العربية». اعتمد المسلحون تفسيرا لهذا الشعار مفاده مطاردة مشاة البحرية الأمريكية المتموقعة بالقرب من حقول النفط في الثكنات الشرقية للمملكة السعودية، وتحريرها من السيطرة الأمريكية التي حولتها إلى محمية. ظل هذا الهدف استراتيجية للنزعة المتطرفة خلال التسعينيات تماما كما كان ينصّص على ذلك الحديث النبوي المصاحب لكلّ إعلان صادر عن شبكة ابن لادن، ثم من البيانات المنسوبة إلى تنظيم القاعدة. كان من المستحيل تحقيق هذا الهدف داخل المملكة السعودية بسبب القمع الداخلي؛ الأمر الذي نتج عنه ظهور

إرهاب ضد الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة، وانتشار الجهاد في مناطق أخرى خصوصا في النصف الثاني من عقد التسعينيات.

وإبان سقوط كابول أخيرا في أيدي تحالف المجاهدين الأفغان خلال أبريل من سنة 1992، انتهى الجهاد في أفغانستان. ومع اغتيال عبد الله عزام، انتهى الأمل قصير المدى بنقل الجهاد إلى فلسطين. وبسرعة كبيرة، فُتحت جبهات في مصر والجزائر والبوسنة، ثم في طاجكستان والشيشان، دون أن نتحدث عن تحول الجهاد الباكستاني إلى كشمير، حيث سيطرت سلطات إسلام أباد على العمليات العسكرية. أعطى هذا الأمر انطباعا بانتشار الجهاد في كل أنحاء العالم، مع ضمان الكثير من الدعاية المدعمة. فمثلما سقطت أفغانستان، حسب المسلحين، بسهولة في أيدي القوات المسلحة، فإن الأنظمة الكافرة للبلدان المستهدفة، ستنهار تحت تأثير مقاتلي السلفية الجهادية والمتعاطفين معهم الذين سيتم تشكيلهم وتجنيدهم فورا.

استهدفت الهجمات في مصر كبار المسؤولين والسياح والأقباط، وبدت قوى القمع إلى حدود سنة 1995 عاجزة عن مواجهة عنف أكثر فعالية يعكس جودة التدريبات في المعسكرات. أصبح الجهاديون بعد ذلك، في وقت قصير معزولين عن قاعدتهم الشعبية. ففي ديسمبر من سنة 1992 كان حي إمبابة في ضواحي القاهرة -معقل الإسلاميين المتطرفين في الجماعة الإسلامية- محاصرا بالجيش، وتم تطهيره من المسلحين. لم يعد المسلحون قادرين على بناء قاعدة أو ملاذ في المناطق الحضرية، كان عليهم البحث عن ملجأ في وادي النيل، حيث نفذوا حرب عصابات أغلقت المنطقة أمام السياح الأجانب، وكان هدفهم حرمان الدولة من واردات السياحة ومحاولة إفشالها. ورغم ذلك، انقلب السكان المحليون، الذين كانوا يستفيدون من السياحة وكانوا أول الضحايا، على المتمردين ومنعوا المزيد من التعبئة الجهادية في المناطق القروية، وفي نفس الوقت فشلت محاولات توحيد الحركة الإسلامية. وحافظت الطبقة الوسطى المتدينة والليبراليون على صلتهم بالإخوان المسلمين الذين توجسوا من الانجرار إلى العنف. لكن أتباع هذه الجماعة عبروا عن تضامنهم مع المقاتلين المتطرفين ومع الجماعة الإسلامية، عندما كان أفرادهم ضحايا عمليات القمع، واستنكروا التعذيب الذي تعرضوا له في السجون. عجّل هذا الانقسام المستشري في الدولة باستعادة المبادرة. فبداية من سنة 1996، عوضت قوات الأمن تباطؤها بالحصول على تقنيات ومعدات لمكافحة العصابات في الصعيد المصري، وألحقت أضرارا بالغة بالمقاتلين الإسلاميين الذين تبنت قواتهم المحبطة استراتيجية العنف. كان الرعب الناتج عن مذبحة العشرات من السياح في منطقة الأقصر في مصر من طرف نشطاء الجماعة الإسلامية خلال خريف 1977 قد طغى على هزيمة الانشقاق المسلح. وعكس استراتيجية الاستيلاء على السلطة في النموذج الأفغاني، فشلت حرب العصابات في وادي النيل.

كانت استراتيجية الجهاد في البوسنة من نوع آخر. حرب أهلية بين الصرب والكروات والبوسنيين، ثم تحويل الحرب إلى صراع ديني. كانت البوسنة في نظر البوسنيين أرض الإسلام التي تم غزوها من طرف الكفار. برر هذا التصور الجهاد الدفاعي على شاكلة أفغانستان، فالمقاتلون الذين جاؤوا إلى المنطقة لم يكونوا بوسنيين، ولم يكن هناك بوسنيون في المعسكرات الباكستانية الأفغانية. معظمهم جاء من شبه الجزيرة العربية، وعلى عكس ما حدث في الجزائر ومصر لم يكن من الممكن فتح جبهة جهاد نشيطة. ساعد هؤلاء المنظمات الإسلامية الإنسانية في الإغاثة عبر المساجد، وكانت تدفع مبالغ طائلة من المال. كان سكان البوسنة يقدرونهم بسبب الحصار المضروب عليهم وعمليات التطهير العرقي والمذابح التي تمارسها الميلشيات الصربية، لكن عملية اندماجهم لم تنجح. إن وحشية الأعمال الجهادية التي كان يتم تصويرها من طرف بعضهم، وهم يلوحون بالرؤوس المقطوعة حديثا، ثم عدم تسامحهم مع التقاليد الشعبية للإسلام البوسني، والتي رفضوها بحجة السلفية الطاهرة، كانت عاملا أساسيا في عدم اندماجهم في المشهد المحلي.

أعلنت اتفاقيات دايتون في ديسمبرر 1995 نهاية الجهاديين الأجانب، الأمر الذي جعل طردهم شرطا ضروريا من شروط Pax Americana. كانت هناك محاولات أخرى لتعزيز الجهاد في ألبانيا، ثم فشلت الحرب في الكوسوفو في بداياتها، بعد أن تم إلقاء القبض على المسلحين الذين أرسلوا إلى هناك، ثم سلمتهم السلطات الألبانية فيما بعد للحكومة المصرية والسعودية.

كان للجهاد في البلقان رمزية أساسية بالنسبة إلى أولئك المنتمين للحركات التي خرجت من معسكرات التدريب الأفغانية الباكستانية. وارتبطت هذه المعسكرات بشكل متزايد بشخصية ابن لادن. وتم إطلاق القتال في أراضي أوروبية وشارك فيه أوروبيون أصليون والسلاف المسلمون ذوو الشعر الأشقر. كانوا يتلقون الدعم من الناشطين المسلحين الذين هاجروا إلى أوروبا الغربية وبالضبط إلى المملكة المتحدة وفرنسا وألمانيا. لهذه الأسباب، لم تتمكن الأنظمة الأوروبية وأمريكا من تجاهل هذه القضية كلما ظهر تحد على حدود الغرب. وعلى عكس حالة أفغانستان، كان هؤلاء الجهاديون ضحايا مجموعة من العوامل، غير قادرين على الاعتماد على الدعم أو تسامح الغرب. كان الأمر أكثر خطورة ودلالة من هاتين النكستين، حيث كانت تؤثر على الجهاد في الجزائر. لقد كان جهاديو الجزائر يأملون في الحصول على السلطة عقب النجاح الذي تحقق تحت راية الجبهة الإسلامية المسلحة للإنقاذ بين سنتي 1989 و1992. فبعد تأسيسها سنة 1989، حشدت الحركة الإسلامية بفعالية وسرعة كبيرتين دعم العديد من الشباب اليائسين في المدن الفقيرة. وانضمت إليهم طبقات متوسطة تم حرمانها من العمل السياسي وعائدات النفط من طرف قادة الحزب السياسي الوحيد جبهة التحرير الوطني. وأدى غياب الشخصيات الدينية والعلماء الصادقين إلى ظهور إيديولوجيين ودعاة الحزب

الذين احتكروا الخطاب الإسلامي، وبالتالي حققت جبهة الإنقاذ الإسلامية نجاحا كبيرا في الانتخابات المحلية والبلدية في يونيو 1990، التي تعد أول انتخابات حرة في الجزائر بعد الاستقلال.

نجح الخميني في إيران سنة 1978 في أن يصير الممثل الوحيد للخطاب الإسلامي، فأطلق بشكل متزامن نداء لكل العناصر الاجتماعية التي شكلت الحركة، بل إنه جذب إليه حتى المعارضة العلمانية لنظام الشاه الديكتاتوري، واحتفظ بهم جميعا موحدين حتى يسيطر على السلطة. شهدت الجزائر على النقيض من ذلك خلال فترة 1990 و1991، انقسام الجبهة الوطنية للإنقاذ إلى تيارين: عباسي مدني وعلي بلحاج. كان الأول المتحدث الرسمي باسم الطبقة الدينية الوسطى متحالفا مع السعودية، عندما اجتاح صدام حسين الكويت في غشت 1990، أما الثاني فكان نموذجا للشباب الفقير في المناطق الحضرية، حيث انحاز إلى العراق ووعد بنهاية أولئك الذين «امتصوا لبن فرنسا السام»، عندما استولت الجبهة الوطنية على السلطة. عانت وحدة الحركة لكونها فشلت في الاحتفاظ بالقاعدة الانتخابية التي كانت تتجه نحوها في يونيو1990 ضد النظام، ودونما تقاسم للرؤية الإسلامية للعالم. قدمت الطبقة الوسطى العلمانية الفرنكفونية، والتي لم تكن تشك في المصير الذي وعدهم به علي بلحاج، دعمها لانقلاب تدخل بموجبه الجيش بين دورتي الانتخابات التشريعية في الثاني عشر من يناير 1992، والتي كان من المتوقع أن تفوز بها الجبهة الوطنية للإنقاذ. صوتت الغالبية العظمى للناخبين على الإسلاميين، موفرين بذلك قاعدة شعبية ضخمة من الناس الغاضبين الذين كانوا يريدون هدم النظام بالقوة إن لزم الأمر؛ لأنه انتزع منهم فوزا كان متوقعا. كانت مثل هذه الظروف ملائمة جدا للجهاد، استغلها بعض المحاربين الذين كانوا في أفغانستان، وشكلوا من حولهم الجماعة الإسلامية المسلحة. ومنذ بداية سنة 1993، كان عليهم تحقيق بعض الانتصارات العسكرية المهمة. كانت بعض مناطق البلاد قد خرجت عن سيطرة الدولة، وأعلنت نفسها مناطق إسلامية محررة. جرى ذلك في مناطق جبلية، حيث تشكلت مقاومة تحت الأرض (في نفس المكان الذي جرت فيه حرب الاستقلال)، وفي الضواحي الحضرية ومراكز المدن ذات الكثافة السكانية الكبيرة. حتى نهاية سنة 1994، تمكن العديد من أمراء الجماعات المتطرفة الذين تابعوا بعضهم البعض على رأس الجماعة الإسلامية المسلحة من عزل النظام، وجذب قادة إسلاميين من الطبقات الوسطى التي ترى في الجماعة الإسلامية المسلحة القيادة المستقبلية للجزائر.

أصبحت الجزائر القضية الكبرى بالنسبة إلى الإيديولوجيين السلفيين الجهاديين، الذين لجأوا إلى العاصمة البريطانية للمسلحين «لندنستان». كانوا يتحدثون عن البطولات العسكرية للمقاومة الإسلامية في الأرياف، مما جعلهم أبطالا عالميين للقضية. وقاموا بإصدار مجلة الأنصار، ونشروا قصصهم عن المجد ووزعوها على أشرطة الدعاية الخاصة بهم.. ترك الانتصار في أفغانستان في نهاية المطاف طعم المرارة. مع بداية 1994، كانت مختلف الفصائل الجهادية تقتل بعضها البعض، الأمر الذي صور للعالم صورة بائسة عن

الدولة الإسلامية الخارجة من الجهاد المنتصر في الثمانينيات. ستصير الجزائر الأرض الإسلامية الجديدة الموعودة: غنية بالنفط وقريبة من أوروبا، وتوفر جسرا لتوسع عالمي للإيمان، مثلما كانت في سنوات الاستقلال الأولى نموذجا متميزا لبلدان العالم الثالث المؤيد للاتحاد السوفياتي. وعلى الرغم من هذه البدايات الواعدة، بدأ الجهاد في الجزائر سنة 1995 يدخل في طريق الفشل، وهو نفس العام الذي أصبح فيه جمال زيتوني أميرا للجماعة الإسلامية المسلحة في ظروف غامضة. انتشر الصراع في فرنسا أيضا، حيث تم اتهام شبكة من الإسلاميين الشباب بالمسؤولية عن الاغتيالات، والذين جاؤوا من الخارج أو كانوا فرنسيين اعتنقوا الإسلام. وشرعت الحركة منذ هذا الوقت، في ارتكاب عدد من الفظائع خسرت بموجبها التأييد الشعبي ووضعته على المحك حتى بين المؤيدين المستترين. كانت هناك حجتان تفسران تطور الجماعة الإسلامية المسلحة: فبالنسبة إلى المعتدلين الذين كانوا مساندين للجبهة الإسلامية للإنقاذ وبعض الملاحظين، فقد تم اختراق الجماعة المتطرفة من طرف عملاء استفزازيين من المخابرات الجزائرية دفعوهم لارتكاب الأخطاء. وحسب هذا المنطق، كانت الاعتداءات في فرنسا تهدف إلى تقوية شوكة الفرنسيين على السلطة في الجزائر العاصمة، والتي كانت تمثل لهم حاجزا ضد الهمجية، رغم ديمقراطيتهم الهشة. أما بالنسبة إلى الآخرين، فإن المنطق الراديكالي للسلفية الجهادية التي خرجت من التجربة الجزائرية كان كافيا لتفسير الفظائع، وكانت الهجمات على فرنسا وسيلة ضغط على باريس لسحب دعمها للجزائر العاصمة مقابل السلام في فرنسا نفسها.

في غياب أدلة دامغة، سيكون من الصعب تفسير العمليات الإرهابية الممتدة إلى أراضي بلد غربي، والأمر نفسه بالنسبة إلى حالات أخرى حدثت خلال هذا العقد، تجعلنا تائهين خصوصا عندما تواطأت الأجهزة السرية مع الإسلاميين المتطرفين. كيفما كان الوضع وابتداء من سنة 1996، حيث ظهرت مجموعة من «الوطنيين» المسلحين من طرف الدولة الجزائرية، بدأت نهاية الجماعة الإسلامية المسلحة مما خلّف مذابح واسعة النطاق في ضواحي الجزائر العاصمة خلال خريف 1997، ثم مجزرة السياح من طرف الجماعة الإسلامية المصرية في الأُقصر. بعد هذا العمل الهمجي، والذي نسبه بعض المحللين إلى أعمال استفزازية، لم تعد الجماعة الإسلامية عاملا أساسيا، حيث أُفسح المجال للجماعات المسلحة الصغيرة ذات التأثير المحدود، ولم تستطع منع الدولة من السيطرة مرة أخرى على الإقليم كاملا.

شكل الفشل العسكري للجهاد الجزائري ضربة قاضية؛ يكمن السبب في سياسة حرب العصابات التي جرت على شاكلة النضال ضد الجيش الأحمر في أفغانستان. وكان الانهيار سنة 1996: في هذه السنة، فقد الكلّ الأمل في البوسنة ومصر والجزائر أيضا، ومال ميزان القوى لصالح السلطة القائمة، بينما حافظت الجبهة الشيشانية على قوتها، بيْد أن ذلك كان هامشيا؛ لأن الأمر كان يتعلق بالقتال ضد الغرب. فقد كان من مصلحة هذا الأخير إضعاف روسيا ومنع تصدير النفط من آسيا الوسطى عبر هذه المنطقة. تزامن فشل

استراتيجية حرب العصابات مع أولى العمليات الإرهابية الرئيسة المنسوبة إلى أسامة بن لادن. يمكن القول إنّه تم استبدال استراتيجية بأخرى.

المرحلة الإرهابية 1996 - 2002

ابتداء من سنة 1996، أصبح الإرهاب التكتيك الأساسي لحركة السلفية الجهادية، وتحولت شخصية أسامة بن لادن إلى أيقونة عليا بالنسبة إليها. ورغم، ذلك اصطدم ابن لادن مع عبد الله عزام حول الإجراء الذي تبناه بعد الجهاد في أفغانستان. أكد ابن لادن على ضرورة تحرير المملكة العربية السعودية من سيطرة أمريكا، معتبرا إياها قضية ذات أولوية على تحرير فلسطين من الاحتلال الإسرائيلي. وبداية من سنة 1989، بدأت السلطات تنظر إلية نظرة شك، حيث تم سحب جواز سفره ووجد نفسه تحت الإقامة الجبرية في بلده، حينما سافر من بيشاور إلى بلدته. ولكنه نجح فيما بعد في الفرار عام 1991 حتى 1996، وجعل منزله في السودان تحت تأثير المنظّر الإسلامي حسن الترابي. وتجمع معارضو الرياض وواشنطن في الخرطوم التي نحت نحو تطرف إسلامي دولي. وأصبحت الخرطوم بالنسبة إلى السلفيين الجهاديين الذين تم إجلاؤهم من أفغانستان في بداية التسعينيات مفترق طرق يسهل على النشطاء المصريين العودة إلى ديارهم عبر تخطي الحدود بشكل غير قانوني.

شكّل قرب السودان من الصومال عاملا أساسيا في عملية أكتوبر 1993 «استعادة الأمل»، حيث أُجبر الجيش الأمريكي المحاصر من طرف الجهاديين على الانسحاب من الصومال. وفوق كل هذا، كانت محاولة الاغتيال الفاشلة للرئيس المصري حسني مبارك في أديس أبابا يونيو 1995 سببا في نبذ المجتمع الدولي للسودان.

اتهمت مصر السودان بأنها تحرض الجهاديين وتأويهم. وقد كانت الخرطوم قد سلمت للتو الإرهابي الدولي كارلوس إلى فرنسا، وحاولت التخلص من ابن لادن بنفس الطريقة بهدف استعادة بعض الاحترام. إن رفض أمريكا تسلم ابن لادن، عندما عُرض عليها ذلك يترك مجالا كبيرا لعدد من الأسئلة. ولم تكن المملكة السعودية لتقبل بهذه الهدية المربكة؛ لأن إعدام ابن لادن سينتج عنه الكثير من المشاكل السياسية الداخلية. وهكذا عاد ابن لادن في صيف 1996 إلى أفغانستان التي سيطرت عليها حركة طالبان حتى قندهار بدعم باكستاني أمريكي. وخلال ذلك، تم تشجيعهم من طرف من يدعمونهم للاستيلاء على كابول في شهر سبتمبر.

شكلت أحداث سنة 1996، والتي يجهل عنها الكثير، نقطة تحول، فقد كانت علامة على الانتقال من مرحلة حرب العصابات الجهادية إلى مرحلة الإرهاب التي طغت عليها المذابح. ومع نهاية شهر يونيو،

وبينما كان النقاش دائرا حول مصير ابن لادن، تسبب عمل إرهابي بواسطة شاحنة ملغّمة في الكثير من الوفيات في صفوف الجيش الأمريكي المتموقع في الظهران بالمملكة العربية السعودية. تذكرنا هذه العملية بعملتي أكتوبر 1983 ضد الثكنة الأمريكية والفرنسية في لبنان، والتي نُسبت إلى متطرفين شيعة بدعم من إيران. وعلى الرغم من اتهام الرياض لإيران بمسؤوليتها على أحداث الظهران، إلا أن الكثير اليوم يردون مسؤولية هذه العملية إلى شبكة ابن لادن. إنه لأمر أساسي أن يعلن ابن لادن من أفغانستان الجهاد ضد الأمريكيين المتواجدين في أرض الحرمين الشريفين. ودون المطالبة صراحة بالمسؤولية عن هذا الحدث قدم النص مبررا له، وبوجود تحديات تواجه سفارتي أمريكا في تنزانيا وكينيا سنة 1998، ثم مهاجمة المدمرة الأمريكية كول (Cole) قبالة سواحل عدن سنة 2000، فإن الوجود الأمريكي كان يمثل في نظرهم غزوا لأراضي الإسلام من طرف الكفار، ويبرر الجهاد الدفاعي بأية طريقة.

إلى جانب حماسة المصطلحات الدينية، يجب علينا دراسة غايات هذه التهديدات ضد أمريكا. إن الإرهاب بالنسبة إلى هؤلاء المتعصبين المنفذين لهذه العمليات السيئة كعمليات انتحارية يعد تكتيكا عقلانيا مقترنا بأهداف محددة. كان تدمير أمريكا من دون شك وأسلمة العالم بأسره وتصورات مسيحية أخرى، جزءا من أحلام النشطاء- النجوم الذين خرجوا من رحم الجهاد الأفغاني، بيْد أنها لم تكن قابلة للتحقق على المدى القصير. عوض ذلك، كانت إحدى دعاوى ابن لادن الأساسية هي إعلان تغيير النظام في المملكة السعودية والقضاء على السلالة الحاكمة التي تسيطر على موارد البلاد من النفط. وسيعوض هذه السلالة مجموعات اجتماعية اقتصادية أخرى، خصوصا التجار الأغنياء والمستثمرين العاديين والطبقة التي ينتمي إليها ابن لادن، والتي وجد فيها الدعم وأشاد بها في بيانه. أظهر فشل انشقاق الحركات الإسلامية في المملكة العربية السعودية بداية التسعينيات أنه من غير المجدي توقع أي تغيير داخلي. كان النظام السعودي محميا من طرف أمريكا التي تعتبره الجهة المنظمة لسوق النفط، ويضمن توفير مصدر للطاقة رخيص نسبيا، ويمكن الوصول إليه. كان المنطق الإرهابي يتأسس على ممارسة ضغط متزايد على أمريكا من خلال سلسلة من الحوادث التي أضحت كلفتها الاجتماعية والسياسية كبيرة بالنسبة إلى الإدارة الأمريكية. ومن شأن ذلك إقناعهم بتغيير سياستهم نحو المملكة العربية السعودية بهدف تغيير النظام. يذكرنا هذا باستراتيجية الجماعة الإسلامية المسلحة إبان وقوع حوادث إجرامية في فرنسا سنة 1995. ستصبح الكلفة الاجتماعية والسياسية مرتفعة، حيث لن يكون أمام باريس من خيار سوى تغيير سياساتها بشأن الجزائر. لكن هذه الحسابات أثبتت فشلها على المدى القصير. لكن السلطات الفرنسية والأمريكية لم تفرط تحت الضغط في مصالحها الحيوية. إن مثل هذه السياسات ستكون لها عواقب وخيمة. ورغم ذلك، وعلى المدى المتوسط، قامت بعض الدوائر السياسية في باريس وواشنطن بإعادة تقييم الآثار السياسية لدعم النظام الجزائري والسعودي. وسنلاحظ لاحقا كيف بدا ذلك واضحا في أمريكا، بعد الحادي عشر من سبتمبر.

تم تنفيذ الموجات الأربع من الهجمات ضد الولايات المتحدة الأمريكية بين سنتي 1996 و2001 من طرف انتحاريين (لكن الهجوم على مركز التجارة العالمية سنة 1993 لم يكن ضمنها) لم يعد هذا الأمر ظاهرة جديدة في النشاط الإسلامي السني المعاصر. ويكشف البحث عن الانتحار كعمل سياسي -ونحن نجد أمثلة سابقة على ذلك في العصور الوسطى، خصوصا بين الحشّاشين (Assassins)- أنه كان يُستخدم في الأصل من طرف الشيعة؛ فقد تم اعتماده للمرة الأولى على نطاق واسع من خلال حرب صدام التي شنها على الجمهورية الإسلامية الإيرانية في سبتمبر 1980. فقد قفز متطوعو البسيج الإيراني، death-defying zealots إلى حقول الألغام العراقية معتقدين أنهم سوف يصعدون إلى جنة الشهداء. كان الهدف هو فتح طريق للجيش النظامي للهجوم. سبق لهذا التكتيك أن كان في العالم العربي من خلال شيعة لبنان في حزب الله وجماعاتهم الصغيرة المتحالفة.

ثبت أنه لا يمكن وقف هذا النوع من العمليات؛ انسحبت القوات الأمريكية والفرنسية من القوات الدولية في لبنان بعد الهجوم الانتحاري سنة 1983، وأكثر من ذلك انسحب الجيش الإسرائيلي من جنوب لبنان في مايو 2000 معتبرا أن ضحايا جنود تشاهال Tsahal كان ثمنا غاليا جدا مقابل الاحتلال. ومنذ ذلك الوقت، أخذت التفجيرات الانتحارية مكانة مهمة خارج البيئة الشيعية التي دعمتها. واعتبر الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان في الشرق الأوسط بمثابة أول انتصار عسكري عربي في ذاكرة العرب. جعلت التفجيرات الانتحارية في السابع من غشت 1998 بدار السلام وفي أكتوبر 2000 بعدن أنظمة الأمن الأمريكي في حالة ارتباك. وظهر في الشرق الأوسط اختلال كبير في توازن القوة العسكرية والنووية لصالح إسرائيل وأمريكا بدون شك، لقد كان هذا التكتيك يعيد إنشاء نوع من «توازن للرعب».

هكذا، فإن تكتيك الإرهاب يشتغل على جبهتين؛ ضغط على تل أبيب وواشنطن أملا في إجبارهما على التنازل كان أهمها الانسحاب الأمريكي والفرنسي من بيروت 1983، ثم رحيل القوات الأمريكية من الصومال سنة 1993، ثم أخيرا الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان بعد قرار رئيس الوزراء إيهود باراك سنة 2000. في نفس الوقت، فإن المكانة والحظوة الناتجتين عن استشهاد المفجرين الانتحاريين قوّت من المعسكر الجهادي حتى داخل المجتمعات الإسلامية. دفع هذا الأمر بالإسلاميين من الطبقة المتوسطة على اتباع أولئك الذين رأوا فيهم عامة الناس أبطالا يواجهون الولايات المتحدة الأمريكية وأعداء لإسرائيل. كما شكّل الأمر تحدّيا كبيرا للدولة العربية التي بدا فشلها العسكري أمام إسرائيل مخزيا. وهدد شرعيتها التي اعتمدت على دور المدافع عن الأمة العربية، وهو نفس الدور الذي تبنته معظم هذه الأنظمة العربية. استمرت هذه الأنظمة في منع أي تعبير عن التعددية وتغيير في النخب السياسية والحفاظ على السلطة في أيدي نفس العائلات أو نفس المجموعات العرقية.

وعلى الرغم من الطابع الخاص لهذه العمليات الإرهابية والتأثير الذي أحدثته لزعزعة الاستقرار، إلا أنها لم تنجح في التأثير على أمريكا لتغيير سياستها في الشرق الأوسط، خصوصا فيما يتعلق بالنظام الملكي السعودي. وفي هذا السياق، كان التخطيط لعملية مختلفة تماما تتجه إلى قلب الولايات المتحدة الأمريكية.

يمكن فهم نقطة التحول في الحادي عشر من سبتمبر 2001 من خلال العلاقة بسببين اثنين، أو جبهتين تحت راية واحدة: الجهاد-الوجود الأمريكي في السعودية الذي كان ذريعة لهجمات 1996 و1998 ثم سنة 2000 في الظهران ونيروبي ودار السلام ثم عدن. ثم السبب الثاني متمثلا في القضية الفلسطينية بعد شرارة الانتفاضة الثانية في خريف 2000. أوضح بيان أسامة ابن لادن ذلك عقب الإعلان الذي نشرته قناة الجزيرة في السابع من أكتوبر 2001، كما أنه يساعدنا في فهم الدعم الشعبي الذي يتمتع به ابن لادن، باعتباره أيقونة للمقاومة في صفوف الشباب العربي وجزءا كبيرا من المجتمع إلى غاية هزيمة طالبان في أفغانستان.

جاء انطلاق الانتفاضة الثانية في الوقت الذي اعتبر فيه بعض الفاعلين السياسيين أن تجدد المواجهة المحدودة مع الجانب الآخر، سيؤدي إلى حل مأزق اتفاقية أوسلو للسلام. كان هذا الأمر إلى جانب السلطة الفلسطينية بقدر ما كان في جزء كبير من المؤسسة الإسرائيلية. كانت إدارة ياسر عرفات تتعرض لانتقادات بسبب استبدادها وفساد الدائرة المحيطة به، وبقيت عاجزة في وجه التوسع المستمر للمستوطنات الإسرائيلية.

ساهم غموض الانتفاضة الثانية في تحسين صورة عرفات لدى جيل الشباب المحبط، كما ساهم في تقليص تطور حركة حماس التي عززت نفوذها من خلال مجموعة من الأنشطة الخيرية المنظمة جيدا، مما ساعد على تعضيد لحمة المجتمع، وتوزيع المساعدات والإعانات والأموال القادمة من شبه الجزيرة العربية. وعلى الجانب الإسرائيلي تبين لأرييل شارون في المواجهة مع السلطة الفلسطينية فرصة لتولي قيادة حزب الليكود، وكان هذا هو الهدف من جولته حول المسجد الأقصى في جبل الهيكل في القدس خلال خريف 2000 التي حظيت بمتابعة إعلامية كبيرة تحت مراقبة أمنية مشددة، الأمر الذي عجل بظهور انتفاضة الأقصى الثانية، والتي سميت باسم المسجد الذي تجول في أرجائه شارون، حيث تعمد استفزاز الغضب الفلسطيني.

أدى انطلاق الانتفاضة والهجمات الأولى إلى تمكن شارون من سلطة فعلية خلال انتخابات فبراير 2001. أما بالنسبة إلى ياسر عرفات، فقد اقتنع إبان انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان بأن الدولة اليهودية مستعدة لتقديم تنازلات، وحتى تتفادى شبح العنف ضد السكان المدنيين، فإنها ستسمح للسلطة الفلسطينية بإعادة تثبيت هيبتها وسيطرتها على السكان. ظلت المسألة بدون حلّ يذكر إلى حدود صيف 2001، وفقدت السلطة الفلسطينية تدريجيا السيطرة على العنف، وحصلت أول التفجيرات الانتحارية ضد المدنيين مقلدة

في ذلك حزب الله اللبناني، وبتحريض من طرف إسلاميي حركة حماس والجهاد الإسلامي. وجاء الرد الإسرائيلي بتدمير البنيات التحتية والاغتيالات المستهدفة التي تم تنفيذها بواسطة الصواريخ الحمراء من طائرات الهيليكوبتر أو الطائرات دون طيّار، وهو ما يدل على التفوق العسكري الكبير بفضل الدعم الأمريكي. كان كل هذا يُنقل على التلفزيون، حيث أثار موجة استياء في جميع أنحاء العالم العربي الإسلامي، وكشف عن عجز العرب، حيث لم تكن الحكومات العربية قادرة على إشراك جيوشها في المواجهة بسبب قلة العتاد التكنولوجي.

كان هذا هو سياق هجمات الحادي عشر من سبتمبر. وقد تركت هذه الهجمات أثرا كبيرا من وجهين بسبب الصور الرمزية والصادمة؛ أولا كان هناك تفجير «انتحاري» على طريقة تلك التي نفذها نشطاء فلسطينيون متطرفون لكن على نطاق واسع. لم يكن شهداء جنين إلا عددا قليلا في حافلة أو مقهى في تل أبيب، بينما قتل القراصنة التسعة عشر آلافا عدة، وكان عدد القتلى والجرحى وسيلة لتكتيك متطور هدفه الاستيلاء على الطائرات؛ ثانيا سيُظهر هذا التكتيك أن التكنولوجيا العسكرية الإسرائيلية والأمريكية المنيعة جدا، أضحت أهدافا سهلة. لقد كانوا ضعفاء، وهم يواجهون خصوما جريئين وعازمين، وحيث يصعب تحديد إلى أية دولة ينتمون.

لهذين السببين، كسبت عمليات الحادي عشر من سبتمبر دعما حماسيا كبيرا لدى قسم كبير من العالم العربي الإسلامي خصوصا الشباب منهم، في حين أن هجمات 1998 وسنة 2000 لم تحظ بهذا الحماس الشعبي. بدا ابن لادن مثل بطل؛ لأنه أعاد القضية الفلسطينية إلى الواجهة، رغم أنه لم يبد أي اهتمام بها من قبل خارج الجزيرة العربية، ومع ذلك ظهر شعور قلق بكون نطاق مذبحة الأبرياء في الولايات المتحدة الأمريكية حوّل الهجمات إلى جريمة ضد الإنسانية. أما على جهة الرأي العام العربي، فقد حاول الناس استبعاد «البطل» ابن لادن عن الجريمة ونسبوها إلى الموساد الإسرائيلي، أو الأعمال الشريرة للمخابرات الأمريكية أو مكتب التحقيقات الفدرالي. ذهب البعض بعيدا جدا إلى حد الزعم أن أغلب القتلى من المسلمين، وقد كانت مناسبة لاستغلال الضحية لصالح القضية العربية الإسلامية. لقد كانت إشارة إلى صعوبة تحويل الاستجابة للجهاد الشامل ضد الغرب، ولم تكن أحداث الحادي عشر من سبتمبر الخطوة الأولى في هذا الجهاد، فقد نتج عن هذا الاستفزاز الكبير لأمريكا انتقام كبير تمثل في غزو أفغانستان ملاذ ابن لادن. كان السلفيون الجهاديون من خلال تحريضهم على اغتيال القائد مسعود في التاسع من سبتمبر يهدفون إلى حرمان الولايات المتحدة الأمريكية من الهجوم على الركيزة الأساسية للدعم على أرض الواقع ثم الإيقاع بالجيش الأمريكي في نفس الفخ الفتاك الذي وقع فيه الجيش الأحمر. كانت هذه هي المرحلة الثالثة من العملية التي سيواصل فيها العالم الإسلامي، المجَيش للجهاد، هجماته المنتصرة ضد الولايات المتحدة الأمريكية العاجزة. ولكن هذه الخطة الجريئة تبخرت بسرعة كبيرة عقب القضاء السريع للجيش الأمريكي وقوات حلف الشمال

الأطلسي على حركة طالبان. ورغم أن تنظيم القاعدة كان لا يزال نشيطا، ورغم ملاحقة قادته، فقد تم الحد من قدرته.

بعد فشل أنصار ابن لادن في جعل أحداث الحادي عشر من سبتمبر بمثابة جهاد شامل، أدانها بعض العلماء الكبار الذين سبق لهم أن دعموا الجهاد الأفغاني ضد الاتحاد السوفياتي. وتم حرمان الجناة من لقب «شهداء»، وبدا أنهم خسروا قضيتهم، وللتعويض عن ذلك اتبع هؤلاء المتدينون نموذج الشيخ القرضاوي الذي خرج من جماعة الإخوان المسلمين في مصر وحقق نجومية نوعية من خلال برنامج للوعظ الأسبوعي على تلفزيون الجزيرة. لكن مقابل ذلك، تمت الإشادة بالانتحاريين في إسرائيل، باعتبارهم شهداء ضمن الجهاد الشرعي، فقد كانت الدولة اليهودية في نظرهم تحتل جزءا كبيرا من أراضي الإسلام بطريقة غير مشروعة، وبالتالي فإن كل الوسائل لطردهم كانت مبررة، بما فيها قتل المدنيين؛ لأن إسرائيل كلها حسب رأيهم، كانت تضم عسكريين بمن فيهم النساء الذين كانوا يرتدون الزي العسكري.

هكذا أصبح الجهاد من أجل القضية الفلسطينية أولوية الأولويات، وتعويضا عن خسارة الجهاديين في أفغانستان، أيدت الانتفاضة الفلسطينية الثانية في أكبر أشكالها الدموية، وأكثر من ذلك ظهرت حركة واسعة من الدعم الكبير تجلت في مظاهرات بالشوارع. وحتى القادة العرب الذين كانت لهم علاقة بالولايات المتحدة الأمريكية، وجدوا أنفسهم مضطرين لتبرير العمليات الانتحارية، أو على الأقل إيجاد أعذار لها. ورغم الضربات التي تلقتها إسرائيل، فإن النتيجة النهائية للجهاد أدت إلى طرح تساؤلات في الأوساط العربية حول الانتفاضة. ووجد أرييل شارون راحته في الغضب ضد الهجمات، وقدم نفسه كممثل للغرب يحارب الإرهاب. نقص حجم التعاطف مع الفلسطينيين من طرف أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، حتى بين أولئك الذين كانوا متعاطفين مع مطالبهم الوطنية. ووجدت حملة تشويه سمعة ياسر عرفات دعما كبيرا، رغم أن واقعة الرئيس جاءت متأخرة خلال خريف 2000 من طرف الرئيس الأمريكي. وتمكن القصف الإسرائيلي من القضاء على الآلية الإدارية للسلطة الفلسطينية، وبدا أن التكلفة السياسية لحملات الانتحاريين كانت كبيرة ومكاسبها كانت محط تساؤلات، حيث لم يكن هناك سوى تمجيد لقلة قليلة كانت ترى ذاتها داخل إطار عقلية ترى أن الإرهاب غاية في حد ذاته.

بيبليوغرافيا:

- Berger, Peter (2001) Holy War: Inside the Secret World of Osama bin Laden (London, Weidenfeld).

- Cooley, John K. (1999) Unholy Wars: Afghanistan, America and International Terrorism (London,Pluto).

- Dorronsoro, Gilles (2001) La Révolution Afghane (Karthala).

- el Berry, Khaled (2002) La Terre est plus belle que le Paradis (Lattès).

- Kepel, Gilles (2002) Jihad: The Trail of Political Islam (London, IB Tauris).

- Kepel, Gilles (2003) Bad Moon Rising: A Chronicle of the Middle East Today (London, Saqi).

- Martinez, Luis (2002) Civil War in Algeria (NJ, Columbia University Press).

- Rashid, Ahmed (2000) Taliban- (New Haven, Yale University Press).

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2020

جميع الحقوق محفوظة © 2020